صلح الإمام الحسن عليه السلام: قراءة تحليلية مدعّمة بالنصوص التاريخية

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي جعل أئمّة الهدى مصابيح مضيئة في دياجير الظلام، وجعل في مواقفهم دروساً باقية للأيام، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد المصطفى، وآله الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

إنّ الحديث عن صلح الإمام الحسن المجتبى (عليه السلام) ليس مجرّد استعادة لحادثة تاريخيّة، بل هو نافذة لفهم مرحلة مفصليّة في تاريخ الأمّة الإسلامية، حيث تلاقت حكمة الإمام المعصوم مع خيانة القاعدة الشعبيّة، لينبثق صلحٌ كان في ظاهره تنازلاً عن الحكم، وفي حقيقته حفظاً للدين وكشفاً للباطل وتعريته أمام الأجيال.

الفصل الأوّل: الواقع السياسي بعد أمير المؤمنين (عليه السلام)

تمهيد

عند استشهاد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) سنة (40 هـ)، تسلّم الإمام الحسن (عليه السلام) زمام القيادة في ظرف بالغ التعقيد. كانت الأمّة منهكة القوى، تتقاذفها التيّارات السياسيّة والمذهبيّة، وتعيش حالة من الانكسار بعد ثلاث معارك كبرى مزّقت أوصالها. ومن أجل استيعاب دلالة الصلح، لابدّ من قراءة الواقع السياسي والاجتماعي في خمس نقاط رئيسة:

1. إرهاق الأمّة بالحروب

لقد استنزفت معارك الجمل وصفّين والنهروان الطاقات البشريّة والنفسيّة للمسلمين، وخصوصاً أهل العراق الذين شكّلوا عماد جيش أمير المؤمنين (عليه السلام). ولهذا يروي ابن الأثير: **(وكان أهل الكوفة قد ملّوا الحروب مع عليّ، فلمّا وليهم الحسن لم يثبتوا معه على قتال معاوية)**[1].

إنّ هذا النصّ يكشف أنّ المشكلة لم تكن في قيادة الإمام الحسن (عليه السلام)، بل في القاعدة الشعبيّة التي فقدت حماستها وصبرها على مواصلة الصراع.

2. تفشّي روح النفاق والانقسام الداخلي

عاشت الكوفة التي اتّخذها الإمام الحسن (عليه السلام) عاصمةً لخلافته حالةً من الاضطراب الحزبي والانقسام الداخلي، حيث امتلأت بالأحزاب المتناقضة:

1. **الخوارج:** الذين طعنوا في شرعيّة قتال معاوية.
2. **الموالون لمعاوية:** طمعاً في المال والجاه.
3. **المذبذبون:** الذين لا يثبتون على موقف.

وهذا الانقسام جعل موقف الإمام الحسن (عليه السلام) أكثر تعقيداً، إذ كان يواجه جبهة خارجية قوية ومعسكراً داخلياً مفكّكاً.

---

(1) ابن الأثير، علي بن محمد، الكامل في التأريخ، ج3 ص405.

3. اختراق المعسكر بالرشوة والدعاية

أفلح معاوية بدهائه السياسي واستعماله بيت المال في شراء ذمم بعض قادة الجيش وزعماء القبائل، حتى صار بعضهم يكاتبونه سرّاً ويتآمرون على حياة الإمام. يروي المسعودي: **(إنّ معاوية دسّ إلى عبيد الله بن العبّاس -وهو على مقدّمة جيش الحسن- ألف ألف درهم، فانتقل في الليل إلى معسكر معاوية ومعه ثمانية آلاف من خاصّته)**[1].

وهذا الحدث شكّل ضربة قاصمة لجيش الإمام، إذ أضعف معنويّاته وزاد من حالة التفكّك.

4. محاولات اغتيال الإمام

بلغت الفتنة مبلغاً خطيراً حتى امتدّت يد الغدر إلى شخص الإمام الحسن (عليه السلام) نفسه، فقد روى الشيخ المفيد: **(بَدَرَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهُ الْجَرَّاحُ بْنُ سِنَانٍ فَأَخَذَ بِلِجَامِ بَغْلَتِهِ وَبِيَدِهِ مِغْوَلٌ وَقَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ أَشْرَكْتَ يَا حَسَنُ كَمَا أَشْرَكَ أَبُوكَ مِنْ قَبْلُ ثُمَّ طَعَنَهُ فِي فَخِذِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى بَلَغَ الْعَظْمَ فَاعْتَنَقَهُ الْحَسَنُ (عليه السلام) وَخَرَّا جَمِيعاً إِلَى الْأَرْضِ)**[2].

وهذا يوضح أنّ الانقسام بلغ حدّ تهديد حياة الإمام (عليه السلام) داخل معسكره، الأمر الذي كشف عن فقدان الأمن الداخلي وتغلغل الخيانة في صفوف المقاتلين.

---

(1) المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب، ج3 ص7.
(2) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج2 ص12.

5. ضعف الإرادة الشعبيّة في مواجهة معاوية

كان معاوية يتمتّع بعدّة عناصر قوّة:

- **قاعدة موحّدة:** هي بلاد الشام التي كانت تدين له بالطاعة.
- **بيت مال ضخم:** سخّره لشراء الذمم وتمويل الدعاية.
- **آلة إعلاميّة مؤثّرة:** سخّرها لتشويه صورة الإمام وأهل بيته، مما زاد من تردّد العامة وخذلانهم.

ومع جيش مثقل بالخيانات والانشقاقات، لم يكن ممكناً خوض حربٍ طويلة الأمد دون مجازفة بضياع أصل الدين.

الفصل الثاني: اضطرار الإمام الحسن (عليه السلام) إلى الصلح

1. تشخيص الإمام للواقع وخطورة الاستمرار في الحرب

لقد أدرك الإمام الحسن المجتبى (عليه السلام) ببصيرته النافذة أنّ الإصرار على الحرب في ظلّ الانقسام الداخلي لن يُثمر إلا عن مجزرة داخلية، وانهيار كامل لجبهة الحق، وربما استئصال أهل بيته وأصحابه المخلصين، فتُطفأ شعلة العترة قبل أوانها.

وقد وصف الإمام (عليه السلام) هذا الواقع المرير في خطبته بالكوفة قائلاً: **(أَمَا وَاللَّهِ مَا ثَنَانَا عَنْ قِتَالِ أَهْلِ الشَّامِ شَكٌّ وَلَا نَدَمٌ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ أَهْلَ الشَّامِ بِالسَّلَامَةِ وَالصَّبْرِ، فَشِيبَتِ السَّلَامَةُ بِالْعَدَاوَةِ، وَالصَّبْرُ بِالْجَزَعِ وَكُنْتُمْ فِي مُبْتَدَإِكُمْ إِلَى صِفِّينَ، وَدِينُكُمْ أَمَامَ دُنْيَاكُمْ وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ وَدُنْيَاكُمْ أَمَامَ دِينِكُمْ، وَكُنَّا لَكُمْ وَكُنْتُمْ لَنَا، فَصِرْتُمُ الْآنَ كَأَنَّكُمْ عَلَيْنَا ثُمَّ أَصْبَحْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ تَعُدُّونَ قَتِيلَيْنِ: قَتِيلًا بِصِفِّينَ تَبْكُونَ عَلَيْهِ، وَقَتِيلًا بِالنَّهْرَوَانِ تَطْلُبُونَ ثَأْرَهُ، فَأَمَّا الْبَاكِي فَخَاذِلٌ، وَأَمَّا الطَّالِبُ فَثَائِرٌ وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَدْ دَعَا إِلَى أَمْرٍ لَيْسَ فِيهِ عِزٌّ وَلَا نَصَفَةٌ، فَإِنْ أَرَدْتُمُ الْمَوْتَ رَدَدْنَاهُ إِلَيْهِ، وَحَكَّمْنَاهُ إِلَى اللَّهِ، وَإِنْ أَرَدْتُمُ الْحَيَاةَ قَبِلْنَاهُ، وَأَخَذْنَا بِالرِّضَا)**[1].

إنّ هذا النصّ يضع يدنا على جوهر قرار الإمام: لم يكن ترك القتال ضعفاً شخصياً ولا خوفاً على النفس، بل كان بصيرة عميقة بحجم الانقسام الداخلي الذي كان سيؤدّي إلى حرب أهلية لا تُبقي ولا تذر.

---

(1) الحلواني، حسين بن محمد بن حسن بن نصر، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، ص77.

2. احتجاج الإمام (عليه السلام) على معاوية بعد الصلح

ولم يكن صلح الإمام الحسن (عليه السلام) استسلاماً سياسياً، بل كان صلحاً مشروطاً يحمل بعداً استراتيجياً لكشف حقيقة معاوية أمام الناس. فقد كتب الإمام (عليه السلام) إلى معاوية بعد الصلح قائلاً: **(إِنَّمَا حَمَلَنِي عَلَى الْكِتَابِ إِلَيْكَ الْإِعْذَارُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَمْرِكَ وَلَكَ فِي ذَلِكَ إِنْ فَعَلْتَهُ الْحَظُّ الْجَسِيمُ وَالصَّلَاحُ لِلْمُسْلِمِينَ فَدَعِ التَّمَادِيَ فِي الْبَاطِلِ وَادْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ مِنْ بَيْعَتِي فَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْكَ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ كُلِ أَوَّابٍ حَفِيظٍ وَمَنْ لَهُ قَلْبٌ مُنِيبٌ.**

وَاتَّقِ اللَّهَ وَدَعِ الْبَغْيَ وَاحْقُنْ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ فَوَ اللَّهِ مَا لَكَ مِنْ خَيْرٍ فِي أَنْ تَلْقَى اللَّهَ مِنْ دِمَائِهِمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا أَنْتَ لَاقِيهِ بِهِ وَادْخُلْ فِي السِّلْمِ وَالطَّاعَةِ وَلَا تُنَازِعِ الْأَمْرَ أَهْلَهُ وَمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْكَ لِيُطْفِئَ اللَّهُ النَّائِرَةَ بِذَلِكَ وَيَجْمَعَ الْكَلِمَةَ وَيُصْلِحَ ذَاتَ الْبَيْنِ وَإِنْ أَنْتَ أَبَيْتَ إِلَّا التَّمَادِيَ فِي غَيِّكَ سِرْتُ إِلَيْكَ بِالْمُسْلِمِينَ فَحَاكَمْتُكَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ)[1].

هذا الاحتجاج الصريح يبيّن أنّ الإمام (عليه السلام) وضع شروطاً واضحة تكشف خروقات معاوية لاحقاً، ليكون التاريخ شاهداً على أنّ أهل البيت (عليهم السلام) لم يفرّطوا في الحق، بل حملوا الأمة على رؤية حقيقتها بنفسها.

3. كشف الإمام لخذلان الأمة

إنّ الإمام الحسن (عليه السلام) لم يُخفِ حقيقة خذلان الأمة له، بل صرّح بها بجرأة مؤلمة، حيث قال: **(وَ اللَّهِ لَوْ قَاتَلْتُ مُعَاوِيَةَ لَأَخَذُوا بِعُنُقِي حَتَّى يَدْفَعُونِي إِلَيْهِ سِلْماً وَ**

(1) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار، ج44 ص40.

اللَّهِ لَئِنْ أُسَالِمَهُ وَ أَنَا عَزِيزٌ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَقْتُلَنِي وَ أَنَا أَسِيرٌ أَوْ يَمُنَّ عَلَيَّ فَيَكُونَ سُنَّةً عَلَى بَنِي هَاشِمٍ آخِرَ الدَّهْرِ)[1].

إنّ هذا النصّ يلخّص المأساة التاريخية: الأمّة التي كان يُفترض أن تكون سند الإمام (عليه السلام) كانت ستسلّمه إلى خصمه بيدها! ومن هنا نفهم أنّ خيار الصلح لم يكن تنازلاً عن الحقّ، بل كان دفعاً لأعظم المفاسد وصيانة لكرامة الرسالة.

الخلاصة

من خلال هذه النصوص والوقائع، يتضح أنّ الإمام الحسن (عليه السلام):

- **كان واعياً بشرعيته** المستندة إلى كتاب الله وسنّة جدّه.
- **أدرك خذلان الأمّة** وتفرّق كلمتها، واستحالة استمرار الحرب في ظلّ هذا الانقسام.
- **حرص على حقن الدماء** وصيانة ما تبقى من قوة الأمة.
- **أراد كشف حقيقة معاوية** وفضح مشروعه السياسي أمام الناس ليكونوا شهوداً على انحرافه.

لقد كان صلح الإمام الحسن (عليه السلام) موقف قائد بصير، لا موقف رجل مستسلم؛ صان دماء المؤمنين، وحفظ بيضة الإسلام، ومهّد الأرضيّة لحركة الإمام الحسين (عليه السلام) التي هزّت ضمير الأمة وأيقظتها من سباتها.

---

(1) الطبرسي، أحمد بن علي، الإحتجاج على أهل اللجاج، ج2 ص290.

النتيجة

إنّ صلح الإمام الحسن (عليه السلام) لم يكن ضعفاً أو تقصيراً، بل كان تشخيصاً دقيقاً للمرحلة السياسيّة التي أعقبت استشهاد أمير المؤمنين (عليه السلام). لقد منع الإمام بإقدامه على الصلح استئصال خطّ أهل البيت (عليهم السلام)، وهيّأ الظروف لنهضة كربلاء التي شكّلت الامتداد الطبيعي لمشروع الإصلاح الإلهي في الأمة. وهكذا تحوّل الصلح من (تنازل) في نظر البعض إلى **استراتيجية بعيدة المدى** صانت الرسالة ومهّدت لصوت الدم الذي دوّى في كربلاء.

الفصل الثالث: خيانة الجيش، نقض العهود، والعبر المستفادة

1. خيانة الجيش وتخاذل الأنصار

إنّ من أعظم ما واجهه الإمام الحسن المجتبى (عليه السلام) خيانة من كان يُفترض بهم أن يكونوا عوناً له وسنداً في مواجهة الباطل. يروي الشيخ المفيد (رحمه الله): **(بَدَرَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهُ الْجَرَّاحُ بْنُ سِنَانٍ فَأَخَذَ بِلِجَامِ بَغْلَتِهِ وَبِيَدِهِ مِغْوَلٌ وَقَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ أَشْرَكْتَ يَا حَسَنُ كَمَا أَشْرَكَ أَبُوكَ مِنْ قَبْلُ ثُمَّ طَعَنَهُ فِي فَخِذِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى بَلَغَ الْعَظْمَ فَاعْتَنَقَهُ الْحَسَنُ (عليه السلام) وَخَرَّا جَمِيعاً إِلَى الْأَرْضِ)**[1].

إنّ هذه الحادثة صريحة في أنّ الخيانة بلغت حدّ الاعتداء الجسدي على الإمام نفسه، بل ومصادرة متاعه الشخصي! وهذا يُظهر بوضوح أنّ الجيش الذي كان يُفترض أن يكون جيش الحقّ قد تحوّل . في جزء منه . إلى أداة خطر على الإمام وبيته. والمضي في القتال في ظلّ مثل هذا الانهيار لم يكن بطولة، بل انتحاراً سياسياً وعسكرياً، وخسارة للدين والشيعة معاً.

2. شراء الذمم بالمال

استغلّ معاوية حبّ الناس للدنيا وضعف بعض النفوس أمام المال والجاه، ففتح أبواب الرشى والولايات. روى الشيخ المفيد (رحمه الله): (كتب جماعة من رؤساء القبائل إلى معاوية بالسمع والطاعة في السر واستحثوه على المسير نحوهم وضمنوا له تسليم الحسن إليه عند دنوهم من عسكره)[2].

---

(1) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج2 ص12.
(2) العاملي، محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج1 ص569.

وهكذا نجح معاوية بدهائه السياسي أن يُفرغ معسكر الحقّ من ولائه الداخلي، ويحوّل كثيراً من القادة إلى أدوات طيّعة في مشروعه. ولذا كان القتال في ظلّ هذا الواقع لن يثمر نصراً، بل سيزيد في الانهيار الداخلي.

3. نقض معاوية للصلح وفضح بني أميّة

لقد كان من أعظم ثمار الصلح أنّه كشف حقيقة بني أميّة أمام الناس بلا مواربة. فقد روى المسعودي أنّ معاوية، بعد أن استتبّ له الأمر، خطب بالكوفة قائلاً: (إِنِّي وَاللهِ مَا قَاتَلْتُكُمْ لِتُصَلُّوا وَلَا لِتَصُومُوا وَلَا لِتَحُجُّوا وَلَا لِتُزَكُّوا إِنَّكُمْ لَتَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَلَكِنِّي قَاتَلْتُكُمْ لِأَتَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ وَقَدْ أَعْطَانِيَ اللهُ ذَلِكَ وَأَنْتُمْ لَهُ كَارِهُونَ أَلَا وَإِنِّي كُنْتُ مَنَّيْتُ الْحَسَنَ وَأَعْطَيْتُهُ أَشْيَاءَ وَجَمِيعُهَا تَحْتَ قَدَمَيَّ لَا أَفِي بِشَيْءٍ مِنْهَا لَهُ)[1].

بهذا التصريح الصارخ انهارت كلّ دعاوى معاوية عن الإصلاح ووحدة الأمة، وانكشف أنّ هدفه لم يكن الدين بل السلطة. وهنا يظهر بجلاء أنّ صلح الإمام الحسن (عليه السلام) لم يكن هزيمة، بل كان **فضحاً استراتيجياً** للتاريخ، إذ جعل معاوية يُعلن بنفسه خبث نيّته، فتسقط حجّته أمام الأمة إلى الأبد.

4. العِظات والعِبر

لقد ترك صلح الإمام الحسن (عليه السلام) دروساً خالدة للأمة، يمكن تلخيصها في ثلاثة محاور رئيسة:

1. **السياسة الواقعية:** علّمنا الإمام أنّ القيادة ليست مقامرة بدماء الأمّة ولا مغامرة غير محسوبة، بل بصيرة بالمصالح العليا وحساب دقيق لمآلات الأمور.

---

(1) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج2 ص14.

2. **حفظ الدين:** كان الصلح صيانة لبيضة الإسلام، ومنعاً لإبادة شيعة أهل البيت (عليهم السلام)، وإبقاءً لشعلة الحق متقدة في القلوب.
3. **تمهيد لكربلاء:** لقد هيّأ الصلح الظروف لثورة كربلاء، إذ لم يعد لأحد عذر في الدفاع عن بني أميّة بعد أن فضحهم الإمام الحسن (عليه السلام)، فكانت نهضة الإمام الحسين (عليه السلام) امتداداً طبيعياً لهذا المشروع الإصلاحي.

الخاتمة العامة

إنّ صلح الإمام الحسن (عليه السلام) صفحة ناصعة في تاريخ الإسلام، وإن غطّتها سحب الخيانة والخذلان. لقد كشف للأمة حقيقتين أساسيتين:

- أنّ بني أميّة لا يسعون إلا للملك والسلطة، ولا يراعون عهداً ولا ذمّة.
- أنّ القيادة المعصومة ليست عناداً ولا بحثاً عن جاه دنيوي، بل هي حفظ للدين ورعاية للمصلحة العليا للأمة وفق سنن الحكمة الإلهية.

لقد كان الإمام الحسن (عليه السلام) مظلوماً في حياته وبعد استشهاده، لكنّ صلحه فتح الباب لنهضة كربلاء التي أضاءت التاريخ، وترك للأمة درساً خالداً في أنّ النصر ليس دائماً بحدّ السيف، بل بالحقّ الذي يبقى ويخلّد، وبالموقف الرسالي الذي يهيّئ الأجيال لتضحيات أعظم.